بحث وتحليل

الطبائع النفسية في ثورة الحسين التحريرية

بقلم الاستاذ الكبير السيد توفيق الفكيكي المحامي

والارض . . . ولنعم ماقال الاستاذ السيد محمود الحبوبي

تمضي العصور ولم تزل من مجده
تتناقل الاخبار والانباءا

لكل ثورة من الثورات التاريخية دينية كانت أوسياسية أواجتماعية علل عامة واسباب خفية قوية الاثر إلا ان علة العلل للثورات انما هي الصراع بين الفضيلة والرذيلة في المجتمع

لقد مضت قرون، وانقضت عصور، وكرت دهور على نهضة ابي عبد الله الحسين « ع » وهي هي جديدة على كر الجديدين، ولاتزال مأساتها الدامية الفاضحة ومصيبتها الجائحة ورزيتها الفادحة الكاظمة يئن ويتوجع بها ضمير الانسانية الحساس. وبرغم ما ألف الكتاب من اخبارها ونظم الشعراء ملاحمها ووصف الادباء والمؤرخون فواجعها على تعاقب اجيالهم وتباعد ديارهم واختلاف نحلهم ومللهم، فان اكثر صفحات تلك الثورة الجبارة لم يتناولها بعد بحث الباحثين واقلام المحققين، ومهما قام اساطين العلم ونشط جهابذة الادب والفلسفة وامراء البيان من مشاهير عصرنا في الشرح والتفسير فلا تزال همتهم العالية عاجزة عن الاحاطة بآيات النهضة الحسينية والالمام التام بمعرفة عناصرها الفلسفية وادراك معانيها الجليلة وبسط روائعها النفسية .

والحق ان النهضة الحسينية المقدسة لم يتناولها التحليل الكافي والتعليل الشافي اوقل ان الحسين بن علي عليهما السلام لم تدرس شخصيته ونفسيته حتى الآن وستظل تضحيته آية الايآت في عالم البطولات النادرة ونهضته عنوان النهضات الاصلاحية التطهيرية التي تستحق عناية كبار المفكرين من علماء علم النفس وعلم الاجتماع وموضع اهتمام فلاسفة التأريخ وعلم الاخلاق في كل جيل وفي كل زمان ولامبالغة ولامغالات في هذا اذا ما اعتقدنا انه عليه السلام كان احد الثقلين فهو اذن شريك القرآن ومن كان شريك القرآن العظيم فحديث نهضته في سبيل قرآنه خالد بخلود القرآن مادامت السماوات

لهذا تختلف صفة الثورة باختلاف صفة الشخصية القائمة بتحقيق غاياتها واهدافها ، ولكن على العموم ان الابطال الابدال يثورون غالباً للحصول على المساواة لهذا فان الشرف والفضيلة من حظ قايلي العدد والصفات المضادة من نصيب الاكثرية . . . فالشخصية العاملة على خلق الثورة وفي نظر احد فلاسفة عصرنا : هي الركن الاول الذي تتحد وتجتمع حول ارادته الافكار والذي يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لان تصير طائفة خاصة وحزبا معيناً : فما هي تلك الشخصية ؟ وماهي عناصرها ؟ ؟

عرف علماء علم النفس الحديث الشخصية بانها المصدر الذي تنبعث منه الارادة وان الارادة هي المصدر الذي تنبعث منه الشخصية وبعضهم قال انها شيء ينمي ويتكون مع سير الحياة ، وان العنصر الاول في تكوين الشخصية القوية هو تناسق العواطف وتنظيمها وانسجام بعضها مع بعض ، ولعل افعل وسيلة في تحقيق هذا التناسق بين مختلف العواطف هو تغلب عاطفة معينة منها ومقدرتها في سائر الظروف والاحوال على توجيه السلوك نحو غاية تخضع لها جميع الغايات الاخرى. وقد تكون هذه العاطفة الغلابة المتفوقة حب العدالة والمساواة أو الاسرة أو الوطن أو المال . اذ حينما تتغلب عاطفة من هذه العواطف على سائر مظاهرها الاخرى وضروبها تدعوها الشهوة الحاكمة المسيطرة ، وكلما تعارضت البواعث الاخرى مع البواعث بهذه الشهوة إنزوت متراجعة منهزمة ولم تستطيع مغالبة العاطفة المستحكمة « ١ »

[١] عن كتاب علم النفس الاجتماعي

اما علماء علم الاخلاق والاجتماع فقد عرفوا الشخصية « بأنها مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والارادية التي يتوج بها الانسان » « ١ »

وهذه التعاريف بجملتها تنحصر في المعنى الثاني للشخصية اي هي الشيء الذي يبنى ويتكون مع سير الحياة فتطوى تحت هذا المعنى مجموعة الصفات من عقلية وخلقية وجسمية وارادية وعوامل البناء والتكوين لهذه المجموعة من الصفات هي عامل الوراثة والتربية الذاتيـــة لاغير وعلى ضوء العلم ـ علم النفس والاجتماع ـ والاخلاق ، نتكلم عن مظاهر الطبائع النفسية في شخصية الحسين « ع » واثرها في ثورته التحريرية

كانت الحكمة العربية قد نطقت بأهمية قانون الوراثة قبل ان يقرر علم النفس الحديث ومن قبله علم الاجتماع فقد جاء في امثال العرب .

« ١ » ومن يشابه أبه فما ظلم « ٢ » ومن سعادة المرء ان يشبهه ابنه « ٣ » فلان ينظر عن عين ابيه ويبطش بيده « ٤ » ما نطف فحل بمثله .

وقال زهير :

وان يك من خير اتوه فانما توارثـه آباء آبائهم قبل

وقال سعيد بن صمصمة وهو يرقص ابنه :

احب ميمون اشد حب * اعرف منه شبهي ولبي

ولبه اعرف منه ربي

وسبق للعرب ايضاً ان ادركوا تأثير اجناس الامهات في الاولاد فقد سئل بعضهم عن ولد الرومية فقال صلف معجب بخيل فولد الصقلبية قال : طفس زنيم ، قيل فولد السوداء فقال شجاع سخي ، قيل فولد الصفراء قال : هم انجب اولاداً والين اجساداً واطيب افواها . قيل فولد النوبية قال : فاسق زان قيل فولد العربيـة . قال : أنف حسود ، قيل فولد اليهودية ، قال : دغل قذر قيل فولد الفارسية ، قال : مكر وخديعة ثم قال :

فلو كنتم لمكيسة اكاست وكيس الام يعرف في البنينا

قال عبد الله بن صفوان لابنه « يالكع » ! فقال: امـا يشبـــه الرجل اباه فمهما كان من حسن وقبيح فمنك تولده وفعلك جـالبـه .

ولهذا جاء في الحديث الشريف (اختاروا لأولادكم خير البطون) وقال « ص » [آياكم وخضراء الدمن] وهذا غيض من فيض مما نطقت به الحكمة العربية في جاهليتها واسلامها وفي هذا العصر قرر علماء الاجتماع هذا الاصل واطلقوا عليه قانون الوراثة وتبعهم بعد ذلك علماء علم النفس ووضعوا على ضوء هذا القانون كثيراً من نظرياتهم المهمة في سلوك الانسان الفردي والاجتماعي ومما جاء في كتاب علم الاجتماع الى العلامة نقولا حداد حول مؤثرات البيئة والوراثة. « كان الحي حساساً او ذا شعور كان عرضة للانفعال والتأثير كثيراً او قليلا من جميع المؤثرات فيـه والمحرضات له ، وهو يتكيف حسب هذه المؤثرات بل هو خلاصة فريقين من المؤثرات تتفاعلان في حياته الفسيولوجية والبيولوجية ايضاً وهي مؤثرات البيئـة ومؤثرات الوارثة . ونعني بمؤثرات الوراثة اجتماع الخواص والصفات المركبة المنتقلة من الابوين الى البنين واجتماع الخواص والصفات يجعل الارث النوعي خاصة في كل فرد يسمى هذا النوع من المؤثرات ، العوامل الوراثية . فالوراثة اهم عامل من عوامل التطور وكلما حاولت البيئة ان تغير شيئاً في صفاته اجتهدت الوراثة ان ترده لاصله وسبب اصرار الوراثة على المحافظة على صفات النوع هو ان [الخلية الجرثومية] تنقل من جيل الى جيل مستقلة في عملها وهي وديعة في الجسم الحي . اي ان هذه الخلية المودعـة في بويضة الام الملقحة من جرثومة الاب لاشأن لها في بناء جسم المولود بل تبقى محفوظة غير متغيرة ووظيفتها انشاء او تكوين الخلية الجرثومية الجديدة التي ستكون في الجيل التالي ، هذا هو السر ان المولود يرث صفات والديه واجداده .

وقد اصاب نابغة الادب الاستاذ الكبير (العلائلي) في تقسيم الوراثة الى صنفين (١) وراثة تاريخية (٢) وراثة تأثرية او انفعالية وهو وان لم يختلف عن غيره في هذا التقسيم الا ان حصر القسم الثاني في الشعور الذي يرثه الجنين من امه لامن ابيه وهو اقرب الى تأثير اجناس الامهات في الاولاد الذي ذكرناه عن اسلافنا العرب .

اما علماء النفس فقـد توصلوا بفضل قانون الوراثة الى نتائج كبيرة في بحوثهم عن الغريزة وتطورهـا فالمقصود بالغريزة عنـدهم هو ما يشاهـد في الكائن الحي من استعداد

---

[١] عن كتاب الشخصية لمؤلفه محمد عطية الابراشي

فطري يجعله يتأثر بمنبهات معينة تيقظ في نفسه نزعات او رغبات خاصة من شأنها ان تدفعه الى سلوك معين يرمي اجمالا الى نفع الكائن الحي او نفع نوعه . ولا يصدر السلوك الغريزي عن الكائن الحي اعتباطاً بل مدفوعا فيه بتأثير عوامل معينة تقدمته كما انه يرمي الى غاية معينة او قصد خاص . وقد سميت هذه المنبهات بالمثيرات الآهلية للغريزة .

فكل غريزة يصحبها انفعال او تأثر من نوع مايثير النشاط الغريزي فهو اشبه شيء بالوقود الذي يصهر المرجل ليدفع البخار الى الانابيب على جهاز الحركة ولولا الا نفعال لما تحركت الرغبة او النزوع الذي من شأنه توجيه سلوك الكائن الحي في اتجاه معين . (١)

ففعل الانسان حسب تطور الغريزة يشتمل على ثروة اجداده في عالم الاحياء منذ عصر (الخلية) مضافاً الى ثروته الذاتيه المكتسبة من تاريخ ميلاده الى يوم مماته وعلى ضوء ما تقدم نقول :

يتجلى لنا تأثير الوراثة المحمدية في الحسين (ع) من جوامع الكلم في نصوص الاحاديث النبوية منها قال(ص):-

١ — [كنت انا وعلي بن ابي طالب نوراً بين يدي الله فلما خلق الله تعالى آدم قسم ذلك النور جزئين جزء انا وجزء علي] . «٢»

٢ — [لما خلق الله تعالى آدم ركب ذلك النور في صلبه فلم يزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب ففي النبوة وفي علي الخلافة] . «٣»

٣ — وروي برواية اخرى [حتى قسمه جزئين فجعل جزء في صلب عبدالله وجزء في صلب ابي طالب فاخرجني نبياً واخرج علياً وصياً].

٤ — قال «ص» : [ان الله عز وجل خلق السموات سبعاً واختار العلى منها واسكنها من شاء من خلقه بني آدم واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم فأنا خيار الى خيار] ... الخ .

٥ — قال « ص » [خير الناس العرب وخير العرب قريش وخير قريش بنو هاشم] .

٦ — قال « ص » [الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام] .

٧ — قال «ص» [ادبني ربي فأحسن تأديبي] .

[وقال علي بن ابي طالب « ع » كنت من الرسول [ص] كالضوء من الضوء والذراع من العضد] . وذلك لان الضوء الاول يكون علة الضوء الثاني فشبه نفسه بالضوء الثاني وشبه رسول الله [ص] بالضوء الاول منبع الاضواء والانوار سبحانه وجلت اسماؤه بالشمس التي توجب الضوء الاول ثم الضوء الاول يوجب الضوء الثاني وهكذا لايزال يوجب بعضه بعضا على وجه الانعكاس وبطرق العلية وبشرط المقابلة [١]

وعلى هذا ذهب الصوفية وفي مقدمتهم الشيخ [ابن عربي] ان الكلمة المحمدية والحقيقة المحمدية اوالنور المحمدي شيء واحد والنور المحمدي هو اكمل مجلى خلقي ظهر فيه الحق ، في الانسان الكامل والخليفة، الكامل باخص معانيه، والحقيقة المحمدية من ناحية صلتها بالعالم مبدأ خلق العالم إذ هي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء اوهو العقل الالهي الذي تجلى الحق فيه لنفسه فالنور المحمدي ازلي لقوله «ص» (اول ماخلق نوري) «٢»

وعليه ففي الحسين « ع » ناحيتان ناحية حادثة وهي ما يتصل منه بالصورة العنصرية الوراثية وناحية ازلية ابدية وهي ما يتصل بالجانب الالهي فهو [حق وخلق] وهو النشأة الحاملة لاوصاف الحقيقة المحمدية والصفات العلوية وهذا سر قوله « ص » [حسين مني وانا من حسين] وهو اشارة الى التجلي الالهي فهو يرى ما لا يرى ابناء النشأة الدنيوية ويشهد ما لا يشهدون لأن الله تعالى قد حولهم في بواطنهم في النشأة الآخروية كما تقتضيه الحقيقة المحمدية والحقيقه المحمدية هي الاول والآخر .

وهذا ما يدلنا عليه قوله «ص» : [نقلنا من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الزكية] فكان النبي وعترته منزهين عن دناءة الاباء وعهر الامهات ومنزهاً عن الرذائل والافعال التي

«١» علم النفس الجنائي.

«٢» عن مسند احمد بن حنبل ٢ و ٣ — عن ابن المغازلي الشافعي ..

«١» جزء ١ من كتاب الراعي والرعية للكاتب .

«٢» فصوص الحكم للشيخ ابن عربي .

تحط الكرامة الانسانية بدليل قوله تعالى : [هو الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين] اى انتقالك من اصلاب الموحدين الساجدين الى ارحام الموحدات الساجدات.

وكان الحسين « ع » قد اشار الى منزلة العترة من الحقيقة المحمدية والى مكانة الوراثة العنصرية المحمدية منها وفي قوله للوليد والي المدينة : [ايها الامير إنا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم . ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحرمة معلن للفسق [ومثلي لا يبايع مثله] .

وفي قوله عندما استأذنه ولده علي الاكبر في منازلة جند الباطل في الطف فقال : «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» . وقد ولد الحسين «ع» بحكم قانون الوراثة من سلالة الانبياء الكرام ذرية درية بعضها من بعض ومن خير ارومات العرب عنصراً ومن اعلى ذوائب قريش فرعاً ومن اكرم عيدان قصي مجداً وقد نشأ عن الآباء الاخيار والامهات الطواهر وتفرع من شجرة باسقة الندى ، شامخة العلى عربية الأصل ، قرشية الأهل منافية الاعطان هاشمية الاغصان .

ثمرتها القرآن وقد سقيت بماء ينابيع الحكمة والعلم في رياض الحلم والمروءة ، فلا يذوي عودها ولا تجف ثمرتها ولا يظل اهلها اصلها ثابت وفرعها نابت .

« ولقد اخترناهم على علم على العالمين »

وممن انتبه الى هذه الناحية في شخصية الحسين « ع» الفاضل « العلائلي» فقال : ان هاشماً وعبد المطلب وابوطالب ثلاثتهم على لون واحد من الأخذ الديني والانتزاع الاجتماعي وقد كملت الوراثة الدينية بالنبي [ص] اذا كان مظهر الضمير الديني على اتم اشكاله ، واكمل اوضاعه ، إذن فالحسين [ع] كان غنياً ما في ذلك شك بما تركب في دمه من الوراثات الدينية المتصلة على طول حبل النسل الممدود وفي اعماق الماضي البعيد وقد كان لهذه الوراثة بوادي ظاهرة في كل تصرفاته الخاصة والعامة ومن التفاته العجيب الذي لم يسبقه احد في هذا الباب قوله : ـ أما اثر الوراثة التأثرية او الانفعالية عليه ، نعلم ان السيدة فاطمة «ع» وضعت الحسين «ع» ولها من العمر عشرون سنة تقريباً وكانت برة تقية صالحة فهي لا تفتأ جاهدة على اعمال التقوى وفي سنة ثلاث للهجرة التي كان الحسين جنيناً وقعت غزوة « احد » وهذه احدثت ابلغ الاسى وأعمقه في النفوس عامة ونشرت على الوجوه نوعاً من الكآبة بسبب ما اصاب المسلمين حتى لقد دخلت الوتيرة والذحل كل بيت والنبي «ص» اصيب بعمه الحمزة «رض» وهذا يشعرنا بان السيدة فاطمة جزعت من نتائج هذه الغزوة والتي لم تكن في جانب جيش ابيها وادركها الاسى العميق والحزن المرير لفقد حمزة ومعنى هذا ان الانفعالات التي تأثرت بها ورثتها لجنينها وهي :ـ

١ ـ اخذ النفس باعمال البر والتعلق بحبائل التقوى.

٢ ـ غلبة الشعور بنوع من الأسى فقد كانت هذه الظاهرة واضحة عند الحسين في حياته ولهذا كان قليل المرح كثير التفكير بمستقبل الامور وسط هذه الزعازع الناشبة والعالقة بأطراف المجتمع .

٣ ـ نضوج السخيمة عنده على الناكبة عن طريق الهدى فان السيدة فاطمة « ع » لاشك انه قد ملك مشاعرها تحرق شديد للتأثر من اعداء ابيها ولو في التمني وهذا الشعور ورثه الحسين وشاءت الظروف ان يكون اعداء جده الذين وتروه في [احد] هم اعداؤه يوم استقبل الامويين بانكفاح وقد وتروه ايضاً .

فالحسين من هذه الناحية كان مثقلا بمتارك الوراثة التأثرية ومتلبدات الوراثة التأريخية وهو من بين هاتين الوراثتين . . .

اجل ! كانت سيرته الشخصية ونهجه في الحياة قد جعله يرى الحق في جميع الأشياء لانه منها كالقاعدة والمقياس والاشياء انما تتغير تبعاً للاستعداد الاخلاقي في الأنسان وقد دفعته سنة الوراثة وتربيته الذاتية لتطبيق الفكرة الاصلاحية المثالية التي اعدها اسلافه وفق النظام الصالح. ومن الانقلابات والثورات الخطيرة من قضية [فدك] الى خروج الخوارج ومصرع ابيه وقد اعدت منه وارثاً محمدياً حقيقاً بان يقوم بما تمليه عليه طبائعه النفسية في عبء الثورة على دولة الجور والباطل .

اثر التربية المحمدية في طبائعه النفسية

ان التربية القرآنية والادب العلوي والمثل الفاطمية

الرفيعة قد عملت على بناء وتكوين طبائعه النفسية وعظمته الشخصية لان الطبائع النفسية كالصفات الجسمانية تتجدد مع النسل تجدداً منتظماً مستمراً . كما ان الأدب ابن الخلق فلا يثبت الا اذا صار وراثياً اعني غير تلبسي ، وان مزايا عظماء الرجال لاتوجد اتفاقاً ولكنها ثمرة الماضي الطويل ، ومن غراس التربيـــة المحمدية في تنشئة الامام السبط [ع] تلك السجايا والشمائل الحسينية التي مثلت الانسانية الكاملة والامثولة الاصلاحيـــة باسمى معانيها . فالنبي [ص] قد أدب مولوده بالأدب الذي ادبه به ربه فاحسن تأديبه بالصورة التي اوصى بها القرآن كما ان امه الزهراء [ع] قد ارضعته لبان الحب المطلق الطاهر واشبعت غريزته بفعل الخـــير العام واعتناق الفضائل والتحلي بلباسها ، وهذبت طبائعه بالمبادئ الشريفة العالية وارهفت حسه وقوت عواطفه والمحبتها بحب الفناء في [الله] حتى اتسعت نفسه لكل الاحاسيس النبيلة . فكان الدلالة النيرة المشعة لتفسير الكلمة النبوية الشريفة [حسين مني وانا من حسين] اى فيه من معناه وفيه من طبيعته .

وقد حلق أدب (العلائلي) الرفيع في التعبـير عن هـذا المعنى فقال : علق النبي « ص » حسينـاً لانه رأى ظله ورأى حقيقته في الطفل الوليد ، فحب النبي له لم يكن بمحض العاطفة فقط بل بشعور آخر ايضاً هو الابقاء على الذات . وان النبوة ليست شيئاً من عمل الدنيا ، الا فيما يتصل بصلاحها وتهذيبها فميراثها لايدخل في زخرف الحياة الذي هو سر التراب وانما يدخل فيما ينتظم التقوى والفضيله مما هو سر القلب ومعنى الوجدان وكان سر قلب النبي « ص » هو ارث الحسين منه فطاب من بعد طيب الاصل . كما قال السيد الطباطبائي .

غرس سقاه رسول الله من يده

وطاب من بعد طيب الاصل فارعه

وهذا الغرس الذي غرسه رسول « ص » في فرعه الحسين (ع) واشرف هو بنفسه على تربيته وسقاه بيده حتى طاب ثمره كما طاب اصله وكان من ثمره جماع الفضائل العالية والعناصر الكمالية في طبيعة شخصية الحسين القوية والتي تشتمل على « المرؤة » وما يتفرع عنها من الآباء والشجاعة ، والكرم ، والوفاء ، والاريحية ، والجاذبية والنشاط العقلي ، والمشاركة الوجدانية والحكمة ، والثقة بالنفس ، والتفاؤل والتواضع واعتدال المزاج والتضحية في سبيل المبدأ والدين والشعور بواجب المسؤليـة والمثابرة وتقديس (الغائية) في خدمة العقيدة ، والصراحة التي تنطوي على عدم الالتواء في الفكر والقول والعمل ، وقوة الأرادة وكل سجية من هذه السجايا الرفيعة تشتمل على عناصر نفسية يطول شرحها وتحليلها مما يحتاج الى تأليف مجلد ضخم ولكن نجمل القول والتنويه عن جذع هـذا الغرس الطيب في الحسين « ع » وعن اقوى عنصر في طبيعته الكمالية . اما الجذع فهو المرؤة واما العنصر القوي في طبائعه النفسية وصفاته الكمالية هو عنصر الأرادة .

ان المرؤة هي دعامة الدعامات للهيكل الاخلاقي وهي عند العرب كالجذع من شجرة الفضائل الانسانية الكاملة فقد جاء في الحديث الشريف « لادين الا بمرؤة » .

وقال امير المؤمنين « اقيلوا ذوي المرؤات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر الاويد الله بيده يرفعه » وقال ابن عباس : (المرؤة ان تحقق التوحيد ، وتركب المنهج السديد ، وتستدعي من الله المزيد) ومن معانيها عندهم : (ان تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك) فهي نزعة نفسية سامية تحمل النفس على فعل الخير لانه خير وميزان اخلاقي للقيم الروحية .

واللغويون يعرفون او يفسرون المرؤة انها [كمال الرجولة طوراً وطوراً انها الانسانية] والظاهر اللغوي من اشتقاقها يفيد ان القوم وضعوها للدلالة على سمو النزعات النفسية المقترن بقوة الروح «١» والدليل على ذلك قوله (ص) : من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مرؤته وظهرت عدالته ووجبت محبتـه وقال اعرابي «والله لولا ان المرؤة ثقيل محملها شديدة مؤونتها ماترك اللئام للكرام شيئاً] .

وقال بعض البلغاء « من شرائط المرؤة ان يتعفف المرء عن الحرام ويتصلف على الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لايستحق ولا يستطل على مايسترق ولا يعين قوياً على ضعيف ولا يؤثر دنيئاً على شريف . ولا يسر مايعقبه الوزر والاثم ، والايفعل مايقبح الذكر والاسم » . والمرؤة في تعريف الفلاسفة وعلماء علم النفس هي « عظم النفس » ولا

[١] روح العروبة لمؤلفه عبد اللطيف شرارة

تنطبق إلا على الاشياء العظيمة والمرئي هو الانسان الذي يحس انه اهل لعظائم الامور والذي هو في الواقع كذلك .

والمروءة تقتضي العظيم دائماً فهي كالجمال في انه لا يوجد الا في جسم عظيم المرئى هو في الطرف الاعلى بعظمته ذاتها ولا يطمع الا في الخير وهو قبلته الوحيدة . وهذا الخير انما هو الشرف الذي هو جزاء الاعمال الباهرة ، فالشرف بلا جدال هو اعظم جميع الخيرات وعلى ذلك فالمرئ انما يهتم في سلوكه بما يمكن ان يوصل الى الشرف ، وفي الحق ان القلوب المرئية لاتعتد على الخصوص الا بالشرف مادام العظماء يطمعون على الاخص في الشرف الذى يرونه لانفسهم الجزاء الأوفى . وما دام المرئي اهلا لاعظم التشاريف لزم ايضاً ان يكون اكمل الرجال ومتى اجتمع للمرء اعظم فضل كان له الحق في اجل نصيب لذلك نجد ان اهل (المروءة) يبين عليهم غالباً الانفة والاباء لهذا يقتحمون الاخطار العظيمة ويضحون بحياتهم من غير تأخر لان الحياة لاتظهر لهم بانها تستحق ان يحرصوا عليها بكل ثمن ولاهتمامهم بالحق اكثر من اهتمامهم برأي الغير يقولون ويفعلون بصراحة في وجه كل الدنيا ، كأنما ذلك هو خاصة النفس العزيزة التي لاتبالي باحد ، لذلك فان المرئ مخلص كمال الاخلاص وصراحته تظهر بما يبديه غالباً من الاستهانات بالموت لانه شغف بالحق فهو يقوله دائماً ، وانه فوق ذلك لايحمل الحقد على ماقدم له من سيئة لانه ليس من شيم النفس العظيمة خصوصاً ادكار السيئة وخليق به ان ينساها « ١ »

والان فان هذه التعاريف والامثال العربية لمعنى المروءة وصفات الرجل المرئي كما وصفها فلاسفة علم الاخلاق وعلم النفس نجدها عبارة عن معنى واحد من معاني طبيعة سيد الشهداء عليه السلام بل اننا نقول : — لو كانت المروءة رجلا لكانت الحسين «ع» — وقد ضرب لنا ابو الشهداء مثلا صادقاً على مروءته العربية في ثورته التحريرية عند ملاقاته للحر وعسكره الجرار « بذى حسم » وكان الوقت وقت الظهيرة في البادية وقد الهمت وقدة العطش اكباد جنود الحر وخيولهم وعددهم الف فارس فقال ابو الشهداء [ع] لفتيانه [اسقوا القوم وارووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً — اى اسقوها قليلا — فأقبلوا يملأون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس حتى سقوها عن آخرها وقد قام الامام ابو عبد الله [ع] بنفسه فخنث السقاء بيده ليشرب علي ابن الطعان المحاربي ويسقى فرسه وكان آخر من لحق بعسكر الحر للاقاة ابى عبد الله وحربه ولكن مروءة الوارث المحمدى عليه السلام أبت ان يهلك عدوه وفرسه عطشاً ولهذا قال فلاسفة علم الاخلاق وجها بذة علم النفس ان المروءة تقتضي العظيم دائماً ، وفوق ذلك ان المرئي لايحمل الحقد على ماقدم له من سيئة لان الحقد ليس من شيم النفس العظيمة .

وفي الحسين يقول الشاعر :

نفى عنه عيب الآدميين ربه ومن مجده مجد الحسين المطهر؟

ومن آثار مروءته التي تنطق بعظموت طبائعه النفسية وزين بها تأريخ الاحرار الاباة على مدى الدهر موقفه الرهيب في ليلة العاشر من المحرم وقد جمع اصحابه الكرام ليمتحن قلوبهم ويأخذ بيعتهم على الموت فقال لهم : « اما بعد فأني لا أعلم اصحاباً اوفى ولا خيراً من اصحابى ولااهل بيت أبر ولا اوصل من اهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً الاواني لأظن يوماً لنا من هؤلاء الاوانى قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم من ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا وليأخذ كل منكم بيد رجل من اهل بيتي وتفرقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم فأنهم لايريدون غيري » ثم نظر الى بني عقيل فقال : « حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم اذهبوا فقد اذنت لكم » .

فانظر اي مروءة اعظم واوفر من هذه المروءة المنطوية على النجابة والشجاعة وحب التضحية والصراحة التي لاتعرف الالتواء في الفكر والقول والعمل وكم كان قول علماء علم النفس صادقاً ومنطبقاً على مروءة ابي عبد الله في قولهم : « ان اهل المروءة يبين عليهم غالباً الانفة والاباء لهذا يقتحمون الاخطار العظيمة ويضحون بحياتهم من غير تأخر لان الحياة لاتظهر بانها تستحق ان يحرصوا عليها بكل ثمن ولاهتمامهم بالحق اكثر من اهتمامهم برأي الغير ، يقولون ويفعلون بصراحة في وجه كل الدنيا كأنما ذلك هو خاصة النفس العزيزة التي لاتبالي باحد ، لذلك فأن المرئ مخلص كمال الاخلاص وصراحته تظهر بما يبديه غالباً من الاستهانات بالموت لانه شغف بالحق فهو يقوله دائماً

[١] الاخلاق لارسطوا .

أما الصفوة المؤمنة من اصحاب الحسين « ع » والجماعة المختارة من اهل بيته وبقية السيوف من آل عقيل فقد برهنوا على مروءتهم في مشاركتهم الوجدانية له فقالوا : ـ

(ولم نفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك لا ارانا الله ذلك ابداً)

ثم قال آل عقيل المياميين :

« سبحان الله فما يقول الناس لنا وماذا نقول اذا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ماصنعوا لا والله ماتفعل ولكنا نفديك بانفسنا واموالنا واهلينا »

يقول علماء علم الاجتماع : ان اصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً لمعتقده ، وبهذا كان تأثيرهم عظيما جداً لان الايمان اكبر قوة في تصريف الانسان والذي قام باكبر حوادث التأريخ افراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم حول ولا طول إلا الايمان.

وقد تألفت الجماعة النفسية في اصحاب الحسين « ع » عند اختفاء الذات الشاعرة في افرادها واتجاه مشاعرها وافكارها نحو غرض واحد اذ تأثرت نفوسهم تأثيراً شديداً بحادث جلل وهو الاستشهاد في نصرة العدالة والحق والمثل المحمدية السامية وفي نظر علماء علم النفس الحديث ان آلافا من الناس اذا اجتمعوا عرضاً في رحبة واسعة بغير قصد معين لا يكونون جماعة نفسية كاصحاب عبيدالله بن زياد الخبيث .

هذا وان خطاب السبط الشهيد لاصحابه في تلك الليلة المرعبة ينم عن قوة نفسية الزعيم الحكيم وثقته بعدالة قضيته وقد دل موقفه وكلامه على انه كان قليل التأثر ولكنه شديد التأثير لا يهاب ولا يرهب الا انه يهيب ويرهب ، لاتضحكه المضحكات ولا تحزنه الدواهي المفزعات المحزنات ولا تستفزه المستهجنات والمناهضات وما كان كل مافي الوجود مايزعزع ايمانه وكان عنده من الحجج والبينات ما يدك براهين اعدائه واحتجاجاتهم او يرمي بها الى الحضيض ثم يدمغ بحقه يافوخ الباطل فاذا هو زاهق ..

عنصر الارادة في الحسين

يرى العلم ـ علم النفس ـ ان الغاية المقصودة من الفعل هي مقياس العنصر الارادي فيه وهذا هو الشأن في جميع الافعال التي تدفع اليها الرغبة ، وان حرية الارادة في سائر مظاهرها هي وليدة نزوع خاص يختلف عن سائر النزعات الاخرى ، كما ان الارادة هي رغبة عززها الحكم باننا سنبلغ بها الغاية المرادة منها لهذا قال « جيمس » ان عمل الارادة ماهو إلا حصر الاهتمام في مسألة صعبة والتشبث بها امام العقل ، ويصح ان يقال ان حصر الاهتمام هو المظهر الجوهري لكل ارادة ، ان اقدام الشخص على العمل تلبية لنداء المبدأ قد تقرر في نفسه من زمن بعيد بعد التروي والتفكير ، وان التضحية بالذات في سبيل مصلحة الآخرين هي مبدأ اسمى من كل اعتبار سواه لانه وصل الى هذا الاستنتاج بعد تفكر ناضج وطول روية ولم يتردد في تطبيق هذا المبدأ وتنفيذه وان قامت اقوى الدوافع معترضة عليه ، محاولة ان تحول دونه ، وهذا النوع من الارادة هو مايصح ان نسميه « العزم » والتمسك بالرأي واحترام المبدأ وهو لهذا اسمى ضروب الارادة ، لانه لم يتكون ازاء ظروف خاصة دعت الى التطبيق ، وانما جاء بسبيل طبيعة عامة وشعور متأصل .

ان ايثار التضحية بالذات هو حاسة ادبية تكتسب غالباً بتشرب المبادئ الاخلاقية العليا ، وقد اندمجت هذه الحاسة في الجنوح نحو السلوك « بمثله الاعلى » حتى ليستحي ويستنكف من نفسه اذا هو لم يفعل ويجد الغبطة والرضى اذا هو فعل ، اي ان اعتداده بالذات يثير لديه رغبة قوية في تحقيق مثله الاعلى مهما تكن الظروف المحيطة به ، ولكن تأثير هذا المبدأ في سلوكه على هذه الصورة يقتضي توافر الى حد كبير من ـــ ضبط النفس ـــ وهو دون سائر العواطف الادبية الغلابة التي لا غناء للارادة عنها خاصة حين تنمو الارادة الى عزم شديد وهو ايضاً نوع رفيع من عاطفة الاحساس بالذات لانه يعين الشخص على تطبيق مبدئه برغم اعتراض سائر الدوافع الاخرى عليه ، ويحمله مستقلا في تصرفه عن تأثير المجتمع ويمكنه من ان يجعل نفسه في مكان وسطه الاجتماعي (١)

(١) علم النفس الاجتماعي

وفي مذهب (ادلر) انه لا يمكن ان تتكون الشخصية . وتنمو الا اذا كانت النفس الانسانية تتجه في نشاطها اتجاها (غائيا) لان الغاية التي يسعى نحوها الشخص وتنشط لتحقيقها هي العامل الحاسم في توجيهه فيوقن « ادلر » ان « الغائية » تسيطر على النفس الانسانية ، فالحياة النفسية للانسان تتجدد على رأي « ادلر » تبعاً للغاية التي ينمو الفرد نحوها وينبع ذلك من حاجة الكائن الحي للتوافق مع البيئة التي يعيش فيها ، ولا يمكن الا ان نتصور للحياة النفسية هدفا تتجه نحوه صنوف النشاط التي توجد في الحياة النفسية .

وتظهر قيمة الاحساس والانفعال من الهدف او الغاية ذلك لان المثل الأعلى للشخصية الذي يتخذه الفرد يبقى عاملا فعالا على الدوام ويحدد الاتجاه الذي يصطنعه الشوق او الميل او الانتباه ، ويلزمها على الدوام بالتصويب نحو اهداف عنيت من قبل ، لان « الغائية » التي تميز السلوك النفسي تحدد لمختلف ضروب النشاط الارادي وغير الارادي سبلاً معينة (١) ينبغي ان تسير فيها حتى تبلغ الهدف الذي عين لها .

ونحن على ضوء هذه الآراء السديدة نبحث عن مظهر عنصر الارادة في طبيعة أبي الشهداء (ع) . وأثرها الفعال في ثورته التحريرية المباركة فنقول :

لقد علمنا مما مر كيف كان تأثير قانون الوراثة وكيف يرث الابناء صفات الآباء والامهات وخصائصهم النفسية والطبيعية كما علمنا من قبل كيف حمل أبو الشهداء ارث النبوة والامامة والانفعالات الفاطمية ، كل تلك المواريث خلقت فيه عنصر الارادة القوي الذي لم تضعفه الصعاب والعقبات ، ولا ثنى عزمه الفشل والخيبة ، ولا صد حزمه اليأس والقنوط . بل كانت ارادته تعبر عن قوله الفصل في ثورته التطهيرية ، اما النجاح او الموت ..

ورث هذه الارادة الصلبة عن جده منقذ البشرية ومحرر الانسانية ، تلك الارادة النبوية التي تحطمت على صخرتها عزمات قريش وجبروت طاغوتها وقد تجلت في كلمته لعمه ابو طالب رضي الله عنه « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان أترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » وهذا الخلق النبوي الكامل قد انتقل بحكم الوراثة الى طبيعة الحسين التاريخية والنفسية . وقد كان مبدأ ـ الغائية ـ هو المسيطر على طبائعه النفسية . لان الغاية التي سعى اجداده نحوها ونشطا بوه لتحقيقها هي العامل الفعال في توجيه ارادته كما قال « ادلر » آنفا من ان الحياة النفسية للانسان تتجدد تبعاً لغايته التي يهدفها والغاية التي جاهد من اجلها امير المؤمنين عليه السلام ومن بعده سيد الشهداء « ع » قد حددها في كلمة [اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ، الا لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك] وهذه الغاية النبيلة هي نفس الغاية التي نهض ابو الشهداء لتحقيقها وقد صرح بها في وصيته لاخيه محمد بن الحنفية عند خروجه من الحجاز نحو الكوفة .

***

وقد كان عنصر الارادة التي اتصف بها ابو الشهداء ملكة من ملكاته النفسية النادرة الوجود وقوية الى درجة خضع لها كل شيء ، وان جميع الناس لم يدركوا ما عسى ان يكون وراء هذه الارادة الصلدة الجبارة المستمرة وقد عجزت أمامها قوى الطبيعة والرجال ...

لقد كبرت ارادة الحسين بن علي في الصبر على الحفاظ المر والاباء المكبوت في صلح أخيه الامام الحسن « ع » مع معاوية وبقي غليان نفسه محتدماً لم يجد مجالا للانفجار طيلة حياة أخيه الامام السبط .

***

لقد تعالت ارادة الحسين على ارادة معاوية ورغبته في أخذ ولاية العهد لابنه يزيد لأن الارادة السفيانية تنافي مبدأ الخير لامة محمد « ص » وارادة الحسين مصدر افعال الخير والسعادة وعصمته لا تدفعه الا الى الكمال .

***

وقد تعاظمت إرادة أبي عبد الله « ع » امام الوليد امير المدينة لما اراد اكراهه على بيعة يزيد ، تعاظمت ارادته ليحفظ لطبعه الهاشمي كل عظمة عربية وكرامة انسانية ، لان المبايعة ليزيد خضوع وخنوع لدعارته وفسقه ولانها رق واستسلام للفحشاء والمنكر حتى الموت . فانكر وثار ثورته التحريرية كما ارادت طبائعه النفسية فصرخ قائلا : « ومثلي لا يبايع مثله »

(١) عن كتاب علم النفس الفردي

وقد انفت ارادته ان يصيخ لقول المشيرين عليه بعدم الخروج من مكة وقد أنفت كذلك ان يمتنع من تلبية نداء أهل الكوفة والانصراف اليهم لشعوره بالتبعة الاخلاقية فطلق حياة الدعة والطمأنينة لخدمة الامة ودفع الغوائل والذل والهوان عنها، ذلك تلبية لنوازعه الداخلية فكان الحمل الامين الصادق.

***

وقد أبت ارادة ابي الشهداء « ع » العنيدة مطاوعة « الطرماح » للاحتماء بجبل (أجاء) والفرار من الموت، لانه ذو قوة روحيـــة لاتنضب وذو خواص علوية لاتضارع، وشمائل فاطمية لاتضاهى، فقال للطرماح [ان بيننا وبين القوم قولا لانقدر معه على الانصراف فان يدفع الله عنا فقديماً ما أنعم علينا وكفى، وان يكن مما لابد منه فنعوز وشهادة]

***

وقد تسامت ارادة سيد الشهداء « ع » ان ينقاد لابن مرجانة انقياد الذليل وان يسام سوم العبيد لأنه من بيت النبوة ومعدن الرسالة والذي يخاف العار وهو الجدير بالاحترام والحقيق بوسام الشرف وصاحب الشجاعـــة الحقة لايفعل إلا باحساس الشرف ...

***

وقد ترفعت ارادته ان تلين ونفسه ان تستكن لطواغيت امية وترفعت عصمته ان تستنزله عن كرامته الهاشمية وقد ابى الله ذلك له ورسوله والمؤمنون، وجـــدود طابت وحجور طهرت، وانوف حمية ونفوس أبية لاتؤثر طاعة اللئام على مضارع الكرام ..

نعم !! لم تزعزع ارادة الاسد الخادر الهصور عظيات الدواهي، وجسيمات الخطوب والملمات، ودماء القرابين من انصاره واشلاء الضحايا ومهج اطفاله من اسرته الكريمة ومن ابناء عمومته الكرام او دموع الثاكلات من حرائره المصونات وسبي عقائله الفاطميات، بل كانت ارادته الجبارة تأبى وتأنف وترفع وتتعاظم وتتسامى كلما كثرت قرابينه من انفاذ كيده وتناثرت اعضاء اصحابه واصطبغت ارض الطف بدمائهم، وارتفع عويل الهاشميات وصراخهن حول خيام عليا نزار. وكلما ازداد ضغط اللئام من انذال الكوفة وهجومهم على فسطاطه ازداد جأشاً وجرأة واقداما.

اما عبيد العصا وعصبة الآثام من نفايات الكوفة وحثالاتها فكانت جموعهم تنكشف عن سطوة حسامه انكشاف « المعزى » اذا شد فيها الذئب فينهزمون من بين يديه كانهم الجراد المنتشر، هؤلاء العبيد الاوباش هم صراخ أئمة المستهزئين [الذين جعلوا القرآن عضين ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون . . .]

بغداد — توفيق الفكيكي

انطلاقات

يا نور الحق

بقلم العلامة محمد منتدى النشر

محمد رضا المظفر

في تاريخ حياتك حياة التأريخ، وفي جلال معناك معنى جلال العقيدة وفي خلود سرك سر خلود الفضيلة.

لقد جئت الى العالم كالشمس المشرقة كشفت عما في خفاياه من كامن الرذائل القذرة التي كانت تهدده بوباء الجاهلية، فتطوح به الى موت الكرامة والفضيلة والانسانية

بل جئت كالقنبلة الذرية ـ وأنت نقطة ارتكاز الدهر ـ فانفجرت لتكهرب الدهر بتيار قوتها، فاحرقت صروح الشرور وهدتها، ولكن نشرت الحياة في معناها اللائق بالحق والعدل والحرية.

سيدي ان قلت (الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم) فقد سحقت بقدميك الكريمتين سيدتهم ومعبودتهم وهي كل مايملكون ويعبدون، فاثبت للانسانية الحائرة ببرهان تضحيتك كيف تسمو النفوس، وكيف يرتفع الحق نوراً يتوهج، بل ناراً تذوب عنده وتتبخر جميع اعتبارات هذه الحياة الفانيـــة أو المعبودة الفاجرة وجعلت اللعنة الدائمة على الظالمين.

فعليك منا ـ يا أبا الشهداء ـ سلام الله ابداً مابقينا وبقي الليل والنهار

المظفر